المادة لا تَفْنى ولا تُستحدث. وهذه الخاصيَّة تنطبق تماماً على الأسطورة، فهي لا تندثر ولا تفنى، بل تظل محتفظةً بجوهرها الداخليّ، ولكنَّها تغيِّر أرديتَها بتبدُّل الزمان والمكان، وتتَّخذ لكل آوان طابعاً يلائمه، مشحوناً بمنات الشيفرات السريَّة، لتجارب البشر على مرّ السنين وحكمتهم وفلسفتهم. فأسطورة «بيت الغول وحجراته الأربعون» هي الوريث الشرعيّ لحكاية الشجرة المحرَّمة، حيث الاعتداءُ على شجرة المعرفة برغم الوصايا والمحاذير. وهذا هو بالضبط ما قاد ذاتَ الرداء الأحمر إلى أن تنسى وصايا أمّها وتسلك طريقاً مخالفة. إنَّها شهوة المعرفة والاكتشاف، التي لولاها لظلّ الانسان حبيسَ واقعه ومحدوديّته.

ليلى والذئب والطريق القريبة والطريق البعيدة

أميمة الخميس

«ذات الرداء الأحمر» أو «ليلى والذئب»

لا أحد يجزم بشرقيَّة هذه القصّة. بل هي مترجمة بحذافيرها عن حكاية Red Riding Hood، ووصلتْ إلينا عبر الترجمة تحت اسم «ذات الرداء الأحمر» أو «ليلى والذئب». وهي لم توجد في أيٍّ من كتب التراث الشعبيّ العربيّ القديمة، ولكننا على الغالب نعرفها شفاهاً عبر قصص الأمّهات، ومن أفلام الصور المتحرِّكة.

ومختصر الحكاية يدور حول ليلى الفتاة البريئة التي تعيش في كوخ جميل على مشارف الغابة، وقد طلبتْ منها أمُّها ذاتَ يوم أن تأخذ سلةً إلى جدّتها، شرط ألا تسلك الطريق البعيدة بل تذهب من الطريق الآمنة المعروفة. ولكنَّها ترتدي معطفها الأحمر وتنتعل حذاءها الأحمر وتنسى نصيحة أمها في الطريق، وسرعان ما تُبهر بجمال طبيعة الغابة، فيعترضُها الذئب ويخدع سذاجتها ويتعرَّف على منزل جدتها، ليسبقها هناك، فتختبئ منه الجدّة، لكنَّه يحتل سريرها ويرتدي ثيابها كي يغرِّر بليلى بعد وصولها. ولكنْ حينما هاجم ليلى، سمع صياحَ استغاثتها صيادٌ شجاعٌ مرَّ من أمام المنزل، فأنقذها وجدَّتَها وقضى على الذئب.

حكاية الإناث

بداية القصة تأخذنا باتجاه محيط أنثويّ يعجّ بالنساء أو بالأشياء المؤنَّثة، حيث الأم وليلى والسلة والغابة والجدّة، دون أن يعكِّر هذا النسيجَ الهادئَ وجودٌ ذكوريّ مربك. بل إنّ الحكاية لم تورد أيَّ وجودٍ لأبٍ لليلى أو لإخوةٍ لها ذكور.

لم يكن هناك سوى ذلك الوجود المطمئنّ الهارب إلى مشارف الغابة بعيداً عن التحدِّيات. ولكنْ لما كانت الحياة لا تمتلك وجهاً وحيداً آمناً، فلا بد أن تتعرَّض تلك الضفافُ الآمنةُ للتحدِّيات. وسرعان ما يُخدَش هذا الهدوءُ الرحميّ المطمئنّ، عندما تمتلئ السلّةُ بالكعك والحلوى التي يجب أن تُنقل إلى الجدّة.

وما هذه الأجيال الثلاثة (ليلى ـ الأم ـ الجدّة) إلا ليلى بجميع أطوارها: الطفلة الغرة، ثم المرأة الناضجة، وصولاً إلى الجدّة العاقلة الحكيمة التي سيكون الوصولُ إلى بيتها (معقل الحكمة) باهظاً وصعباً.

وفي تلك اللحظة التي قررتْ فيها ليلى أن ترتدي ثوبها الأحمر، تَحَدَّد مصيرُها وتوجُّهُها في القصة. فهذا اللّون الدمويّ الضاجّ، الذي لا يَقْبل الحلول الهادئة أو الطرق القريبة، هو الإشارة التي تَبْرق في وجه الصغيرات اللواتي يفكِّرن في العصيان والتمرُّد وسلوكِ طريق الشهوة والدم. وكانت البشريّة دائماً تَجْعل من الأحمر رمزاً للحرب والدم والغرائز الشهوانية، وتَجْعل من كوكب المريخ رمزاً للحرب نظراً إلى لونه الدمويّ الأحمر. وظلّ اللّون الأحمر يحمل هذه الرموز جميعها، وصولاً إلى المدينة الحديثة التي برقشتْ وجه المدن بالعلامات الحمراء التحذيريّة.

ولكنّ التحذير لن يُثني ليلى عن سلوك الطريق البعيدة لجمالها وإغوائها. فما إنْ أطبقتْ باب أمها وغادرتْ محاولةً الوصول إلى بيت جدتها (معقل الحكمة) حتى غادرتْ طوراً من أطوار حياتها الطفوليّة البريئة. وقد يكون أحدُ أبعاد رداء ليلى الأحمر هو الدماء الأنثويّة، فهذه إحدى علامات نضجها واكتمالها. ولكي يكتمل هذا النضج لا بدّ أن تصل السلّةُ الثمينة إلى بيت الجدّة بسلام. لكنّ الطريق مغوية، والرداء أحمر، والفراشات ترفرف حول ليلى وتحتدم.

ودائماً المعرفة باهظة ومكلفة، سواء في الأساطير أو الواقع. فشجرة المعرفة كان عقوبتها السقوطُ، وغرفة الغول الأربعون أدّت إلى حقيقة مفجعة، وفضول ليلى سيقودها إلى مواجهة مع الذئب... مع مصيرٍ قدريّ تحدَّد عندما ارتدَتْ ثوبها الأحمر ونسيت النصائح.

الحضور الذكوريّ الأول

ينشرخ النسيجُ الأنثويُّ، هنا، عن وجه الذئب. وهو الذَكَر الذي يقطن الأماكن النائية والمريبة، ذكرُ المعصية والدروب الخلفيّة.

هذه البراءة وذلك النقاء اللذان تعاملتْ بهما ليلى مع الذئب ساقاها إلى مأزق رهيب، إذ سبقها الذئبُ إلى الطور الأكمل من أطوار نضجها واكتمالها، فأزال الجَدّة وجلس في سريرها بانتظار ليلى.

لم يعد هناك في معقل الحكمة سوى غريزة حيوانيّة شريرة تفحّ أنيابها بالرغبة في التهام ليلى والقضاء على حلمها بالنضج والوصول. والذئب، سواء في الموروث الشعبيّ العربيّ أو العالميّ، هو الرمز الشرير الشرس الذي يعمل في الظلام ويخاتل الشاء كي يأخذ مآربه من القطيع.

وهناك على سرير الجدّة ينتظر الذئب، متنكِّراً في ثياب الجدّة، ليلى ذاتَ الرداء الأحمر وسلتَها المثقلة، ليلى الغرةَ البريئةَ التي نسيت الوصايا واطمأنّتْ إلى الغرباء... الذين لم يكونوا سوى ذئاب.

فساد مقادير الطبخة

وللإناث مقاديرُ عريقةٌ وثابتة ومحترمة، يتّبعنها عند إعداد الطعام، ويحْرِصن على تداولها جيلاً بعد جيل كسرّ أنثويّ ثمينٍ ونادر. تلك المقادير عَبَثتْ بها ليلى، وعندها انشرخ نسيجُ الحكاية الآمنة وسقط بين فكّي الذئب في مفارقة درامية ينتفي فيها التكافؤ العادل. فإذا ليلى الغضة البريئة، وإذا الجدّة التي ترتجف خوفاً بعد أن اختبأتْ في إحدى خزانات المنزل، تواجِهان... أنيابَ الذئب.

الملائم

ولأنّ الحكاية ذاتُ تصميم أنثويّ بامتياز، فإنّ «مُصمِّماتها» لم يستطعن أن يُسدلن الستار عليها بنهاية درامية مفجعة. ولذلك اقحمن في الحكاية ذَكَراً من نوع آخر، هو الصيّاد الشجاع. وبقيت ليلى لا حول لها ولا قوّة أمام أنياب الذئب، ولم يتم لها النجاة إلاّ بذلك الذكر المشذب المهذب الذي له خصائصُ الأخ أو الزوج، فقد استجاب لاستغاثتها واقتحم الكوخ واستطاع تخليصها هي وجدّتها.

حزام العفة

حكاية «ليلى والذئب» هي حزام العفة الأول الذي تخيطه الأمهات حول أدمغة الصغيرات، بمهارة وإحكام، لتتّضح الحدودُ تماماً بين الطريق القريبة والطريق البعيدة.

إنّها حكاية محمّلة بالرموز التي خزّنتها البشريّةُ عبر التاريخ. وهي رموزٌ تحذِّر ذواتَ الرداء الأحمر من أنياب الذئب. فليس في غابة الحياة سوى ذئاب. وذلك أنّ هذه الغابة بجمالها، وتوحُّشها، أو بدائيّتها، وفطرياتها، وجنونها وغموضها، وتعدديّتها اللامتناهية، ووجوهها الكثيرة، إنّما تُختصر إلى بعدٍ أحاديّ ومحدود: هو أنياب الذئب... في حكايةٍ ذاتِ نسيجٍ مخلص لأنثويته إخلاصاً تاماً!

الإمارات العربية المتحدة